عرض وتحليل لسورة الحجرات

١ — تمهيد :

إن تفكيرنا ودعوتنا وأسس بنائنا وسلوكنا في مضارب الحياة . كل ذلك يجب أن يصدر من القرآن الكريم والسنة المطهرة أولا وأخيرا — فإن فيهما الكفاية ، وفيهما شفاء لما في الصدور ، وفيهما نبأ الأولين والآخرين ، ما لهم وما عليهم ، وليس هناك إيجاز أدق وأشمل في الدلالة على ذلك من قوله تعالى (**ما فرطنا في الكتاب من شيء**) وقول الرسول ﷺ «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**» . هذا وسأعرض هذه السورة العظيمة وأبسط القول فيها بإيجاز غير مخل معتمداً على ما جاء في التفاسير القديمة والحديثة . وإذا أردتَ التفصيل والوقوف عند كل كلمة من السورة فعليك أيها القارىء الكريم بمراجعة التفاسير من القرآن والسنة وما يتعلق بالسورة .. اللهم إن كان الصواب فمنك وإن كان الخطأ فمني ومنك أستمد التوفيق وسداد القول وصواب المعرفة في مرادك ومراد رسولك ﷺ فأنت أعلم بكتابك الحكيم .

بلغت آيات السورة ثماني عشرة آية ، وكلها مدنية بالإجماع ، والضوابط والمميزات التي ذكرها علماء علوم التفسير وعلماء علوم القرآن للقرآن المدني ،

تنطبق كل المطابقة على هذه السورة كيا أيها الذين آمنوا فإن هذا النداء ورد في السورة خمس مرات وكاختصاص السورة بكاملها بتوجيه المؤمنين بأحكام وآداب تخصهم ، وكالكلام على المنافقين كما يفهم بعض المفسرين في «قالت الأعراب آمنا» .

وآياتها موزعة بين أسباب النزول المختلفة وسنعرفها إن شاء الله تعالى في مناسباتها . وسميت هذه السورة بسورة الحجرات ومأخذ ذلك من الآية الرابعة «**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**» والمراد بالحجرات حجرات أزواج النبي ﷺ . وهذا الأسلوب في تسمية السور متبع شامل لسور القرآن فتسمى كل سورة باسم أو بكلمة تدور عليها قصة في موضوع من موضوعاتها البارزة أو تسمى السورة بمضمونها كسورة الإخلاص وهذه دقيقة من دقائق القرآن ولطائفه – الله أعلم بها – في تطابق إسم السورة مضمونها كليا أو جزئيا وتسمية كلام الله بالقرآن وغيره من الأسماء التي بلغت كما أحصاها بعض العلماء خمسة وخمسين إسما وكلها تطابق مضمون هذا الكتاب العزيز . وفي ذلك تعليم للمؤمنين بهذا القرآن أن تطابق تسميتهم بالمسلمين حقيقتهم الكونية والشرعية فلا يتناقضون ولا يتوزعون بين الإيمان والنفاق والكفر .. ! كما تربي القوانين الوضعية المؤمنين بها وتصوغ المتحمسين لها بلافتات وشعارات براقة ومضمونها يناقض عناوينها ومتضارب في نفسه يلعن بعضه بعضا وتكذب ظواهرها خفاياها وخفاياها ظواهرها فتأثر بهذا التلفيق والخلط والجنون أولئك المفتونون بالقوانين الوضعية فإذا هم في الأرض فتنة تمشي وأمراض تعدي وبدع تفتك بالخلق والإستقامة ...!

قال بعض الكتاب «سمى الله كتابه إسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على

الجملة والتفصيل» وتفصيل ذلك هو أنه سما كلامه جملة قرآنا وسمى بعضه سورة وبعض السور آية وآخرها سماه العلماء فاصلة.

وأما العرب فسموا كلامهم ديوانا وبعضه قصيدة وبعض القصيدة البيت ونهاية البيت القافية.

٣ - مناسبة السورة للسورة التي قبلها «سورة الفتح»

إن كتاب الله تعالى في غاية الحكمة والإحكام، في أسلوبه وتشريعه، وفي ترتيب سوره وآياته، وموضوعات سوره. وهي حكمة قد يدركها الناس أو يدركون بعضها وقد لا يدركونها والمطلوب الإيمان بغيب حكمة الله تعالى ما ظهر منها وما خفي. فالإيمان هذا في ذاته إيمان وعمل..! وأما الذين يخوضون ويلعبون حول هذه الحكمة وهذه الأسرار في كتاب الله تعالى، إذا ظهرت لهم أخذوا بها بدعواهم، وإن خفيت عليهم أنكروها وجحدوها، بعقولهم المحدودة وذهبوا مذاهب في الغيبيات والأسرار تخرجهم من ثناء الله تعالى على المؤمنين بالغيب، هؤلاء فتنة قديما وحديثا في شرعنا وإسلامنا يجب الحذر منهم على كل حال في كل زمان ومكان.

هذا وليعلم القارىء أن هذا اللون من التفسير وهو المناسبة بين السور ونحوها - ليس من التفسير المنقول عن الرسول ﷺ ولم يأت القرآن كذلك لبيانه إنما هو والله أعلم من اجتهاد العلماء وفقهم الله لفهم أسرار التنزيل المعجز. وقد ذكر بعض هؤلاء مناسبات بين السورتين سورة الفتح وسورة الحجرات:

١ - السورتان مدنيتان ومشتملتان على أحكام، سورة الفتح فيها قتال الكفار

والحجرات فيها قتال البغاة من المسلمين .

٢ – سورة الفتح ختمت بالذين آمنوا «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار» والحجرات افتتحت بالذين آمنوا «**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا الآية**» .

٣ – سورة الفتح تضمنت تشريفا وتعزيزاً وانتصاراً للرسول ﷺ والحجرات كذلك في مطلعها تضمنت توقيراً وتبجيلاً له ﷺ .

٤ – في آخر سورة الفتح ذكر الله سبحانه وتعالى الصالحين وما وعدهم من الجزاء (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**» فربما صدر من المؤمنين العاملين الصالحات بعض الشيء مما ينكر ويستهجن وينهي عنه كرفع الصوت فوق صوت النبي ومسابقته في الكلام والعمل أو مسابقة القرآن وسنته فقال جل وعلا «**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ...» السورة .

سورة عظيمة جليلة بين الله سبحانه وتعالى فيها أسس البناء للمجتمع المسلم المؤمن بقرآنه ورسوله . المجتمع الذي يصدر عن عقيدته الإسلامية ، ويوقر كتاب الله ورسوله ﷺ ويحسب لهما ألف حساب ، في سرائه وضرائه ، وفي سكونه وحركاته ، وفي ليله ونهاره ، مع نفسه ومع عدوه .

إن سور القرآن الكريم لتستقل كل سورة بالأسس المفصلة أو المجملة المحيطة بقواعد الإسلام وفروعه . فكل سورة ضمنها الله سبحانه وتعالى ما ضمنه بقية سور القرآن .فالتفاوت بينها إنما هو في نوع الإجمال والتفصيل وأداء الأسلوب

الخاص بالسورة ، والمضمون واحد في كل سور القرآن ، وهذا ما يدل على أن هذا القرآن إنما كان مصدره واحداً وهو الواحد الأحد الفرد الصمد . مع كونه نزل في مناسبات مختلفة زمناً ومكانا . وما قاله الإمام الشافعي رحمه الله في سورة العصر : «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم» يمكن أن يقال عند كل سورة أو أغلب سور القرآن ، لو تدبرها الناس حق التدبر ...! وهذه السورة «الحجرات» بين الله عز وجل فيها أسسا وقواعد ثابتة بأسلوب وتقسيم فريد لو تأمله الناس لعقلوا تعاليم الإسلام كاملة . وهذه الآداب التي أدب الله بها المؤمنين ليتخلقوا بها مع كتاب الله تعالى ورسوله ﷺ الذي يستحق كل التوقير والإحترام والتبجيل – آداب في غاية الروعة وهي نفسها الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وسأعرضها في إيجاز فيه بعض التفصيل تارة والإشارة السريعة تارة وهي كالتالي :

قال تعالى (**يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**»[1]

---

(١) سبب نزول هذه الآية :

١ – قيل : إن وفد بني تميم قدموا على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر للرسول عليه الصلاة والسلام : أمّر عليهم القعقاع بن معبد وقال عمر أمّر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي . قال عمر : ما أردت خلافك فتحاريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت .

٢ – وقيل : إن قوما ذبحوا يوم النحر قبل أن يصلي رسول الله ﷺ ويذبح فنزلت .

٣ – قيل إنها نزلت في قوم تمنوا أن ينزل فيهم القرآن قالوا : لو أنزل الله في كذا وكذا فكره الله ذلك .

٤ – وقيل : إنها نزلت في عمرو بن أمية الضمري وقد قتل رجلين من بني سليم كانا من أهل العهد .

لقد تواردت تفاسير العلماء لهذه الآية وكلها تلتقي عند هدف واحد وهو أنه ليس لأي أحد أن يبرم أمراً في حياته الخاصة والعامة في نفسه وفي غيره إلا بعدما ينظر ماذا قال الله وقال رسوله ﷺ فيه ويحسن أن أورد أقوال العلماء هنا ليعلم القارىء عظمة الموقف وخطورة القول والعمل قبل أن يأمر الله ورسوله ﷺ أو ينهيا .

عن ابن عباس رضي الله عنه : «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة» .

وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه .

وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم .

وقال الصوفي : نهوا أن يتكلموا بين كلامه .

وقال الحسن البصري : لا تدعوا قبل الإمام .

وقال سفيان الثوري : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل .

وقال الزجاج : لا تقدموا أعمال الطاعة قبل وقتها .

وقال أبو عبيدة : تقول العرب فلان يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه يعجل بالأمر والنهي دونه .

---

٥ – وقيل : إنها نزلت في ناس يتقدمون شهر رمضان فيصومون قبل الرسول ﷺ) والصواب أنها عامة لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهذه الأقوال تشملها الآية .

قال أبو بكر بن العربي : لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ وإيجاب إتباعه والإقتداء به ولذلك قال النبي ﷺ في مرضه «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت عائشة لحفصة : قولي له : إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء فمر عليا فليصل بالناس «والمشهور عمر» فقال النبي ﷺ : إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس . يعني بقوله صواحب يوسف الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز .

قال الطبري : لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم ورسوله فتقضوا بخلاف أمر الله ورسوله ﷺ .

قال ابن كثير : لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله بل كونوا تبعا له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي «حديث معاذ رضي الله عنه» حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن ، بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى قال ﷺ فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ﷺ قال ﷺ فإن لم تجد . قال رضي الله عنه أجتهد رأي فضرب في صدره وقال الحمدلله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ . وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه . فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله» .

تلك أقوال بعض المفسرين في هذه الآية العظيمة الشاملة في الإستسلام والإنقياد لحكم الله وحكم رسوله ﷺ في كل شيء في حياة المسلم . وهذه الأقوال كلها تلتقي عند هدف واحد وهو أنه لا يجوز لأي أحد مهما كانت

منزلته – آمن بالله إلها مشرعا وبرسوله ﷺ رسولا صادقا أمينا – أن يتصرف فيما يخصه ويخص غيره أو يعمه مع غيره إلا بعد أن يستفتي الله سبحانه وتعالى من كتابه العزيز ورسوله ﷺ من سنته المطهرة .

هل لهما في ذلك حكم وبيان وقول مفصل .. أو مجمل مقيد أو مطلق ...؟ لأنه لا حرية للمسلم في نفسه ما دام استسلم لله وآمن به وبرسله وكتبه . كما تظن بعض التصورات الجاهلة التي تريد أن تفرق بين جوانب حياة المسلم والمجتمع المسلم . فتدعو هذا دينا وللدين . وتدعو ذاك دنيا وللقوانين الوضعية أو تسمي بعض أموره بالأحوال الشخصية وما بقي للقانون والأهواء والعادات ...!!!

أليست التربية على غير منهج الله تعالى وهو القرآن وعلى غير منهج الرسول ﷺ وهو القرآن والسنة من التقديم على الله ورسوله ﷺ ..؟ أليس الحكم بقوانين بشرية وضعية سواء صدرت من المسلمين أو من غيرهم أليس ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ ...؟

كقوله تعالى (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**) . **وقوله** (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**) . **وقوله** (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**) والآيات في المائدة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧] .

وقوله في شأن تحكيم رسوله ﷺ « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** » [الآية في سورة النساء ٦٥] .

أليست المعاملات الربوية التي تضخم حرامها في البنوك وفي اقتصاد بعض المسلمين أفراداً وجماعات ودولا أليس ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله

ﷺ ..؟؟ والله يقول (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**) [الآيتان من سورة البقرة ٢٧٨-٢٧٩] .

إن واقع المسلمين اليوم الذي يصفونه جميعا من أنه واقع «متوتر ، مضطرب ، مهدد ، مشتت ، مستضعف ، خطير ، محاصر بالعدو ، متغلغل فيه ، مختلط بالفساد والمنكرات» كل هذا يعود إلى أن كثيراً من المسلمين لا يستحون ولا يخجلون أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله ﷺ فيحكمون الكفر في أنفسهم ويقلدون الضلال فيتخذون منه أدبا وأخلاقا ويبتدعون ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ ...!!

قال شيخنا محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في الأضواء عند هذه الآية «**والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله ويدخل في ذلك دخولا أوليا تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه وتحليل ما يحلله لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله ولا شرع إلا ما شرعه الله**» . — قلت وقد امتثل المسلمون مع الرسول هذا فيقولون بعد نزول هذه الآية دائما الله ورسوله أعلم حتى فيما يعرفون مخافة أن يتقدموا على الله ورسوله . قال الأستاذ سيد قطب في الظلال «نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب واستجاشة لقلوبهم بالصيغة التي تربطهم به وتشعرهم بأنهم له وأنه يحملون شارته وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم إختياراً لهم ومنة عليهم فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره بفعل ما يأمر ويرضى بما يقسم ويسلم

ويستسلم ... يا أيها الذين آمنوا لا تقترحوا على الله ورسوله إقتراحا لا في خاصة أنفسكم ولا في أمور الحياة من حولكم ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله» .

هذا وقد جاءت الآيات بعد هذه الآية إلى آخر السورة تطبيقا لهذا الذي حذرت منه الآية ولا تزال تحذر . فهل من مجيب . ويتدبر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ...؟

٢ – الأدب الثاني

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم * إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم * [1] .

سبب نزول الآيات : (١) :

أما الآية الأولى فقيل في سبب نزولها كما مر في قصة الشيخين رضي الله عنهما وكما أخرج البخاري «كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم .. ألخ» وقيل نزلت في وفد تميم أنفسهم . وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه لأنه كان جهير الصوت عند رسول الله . قال ابن عطية «الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب . قال ابن حجر في الفتح بعد ذكره قول ابن عطية هذا «لا يعارض ذلك هذا الحديث فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في مخالفهما في التأمير هو أول السورة «لا تقدموا» ولكن لما اتصل بها قوله «لا ترفعوا» تمسك عمر بها يخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بني تميم والذي يختص بهم قوله «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» . وقال لا مانع أن تنزل الآية لأسباب تتقدمها فلا يعدل

هذا هو الأدب الثاني فيما ندب الله المؤمنين إليه بأسلوب ملزم لهم هذا الأدب وهو أسلوب النهي ولم يأت في القرآن ولا في السنة ما يصرفه عن وجوب الإنتهاء حيث نهاهم ، ولا ما يجيز لهم من بعيد أو قريب أن يرفعوا

للترجيح مع ظهور الجمع وصحة الطرق . ولعل البخاري استشعر ذلك فأورد قصة ثابت ابن قيس عقب هذا ليبين ما أشرت إليه من الجمع ثم عقب ذلك كله بترجمة قوله تعالى «ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً» إشارة إلى قصة جفاة الأعراب من بني تميم لكنه لم يذكر في الترجمة حديثاً وكأنه ذكر حديث ثابت بن قيس لأنه هو الذي كان الخطيب لما وقع الكلام في المفاخرة» أما المناداة من وراء الحجرات فإنها من وفد بني تميم كما جاء في الروايات وأصحها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال يا محمد يا محمد وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه فقال يا رسول الله إنّ حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال رسول الله ﷺ ذاك الله عز وجل» . قلت أنا الكاتب : الأقرب أن هذه الآيات نزلت في وفد بني تميم وشملتهم مع من كان يرفع صوته عند النبي ﷺ ويجهر له بالقول ويدخل في ذلك ما حصل من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وما كان يحصل من ثابت بن قيس ولو كان ذلك من غير قصد منهم ومن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم . وترتيب القصة فيما يبدوا كالتالي «نداء الوفد من حول الحجرات بأصوات مرتفعة ثم خروج الرسول ﷺ إليهم فتم أمره معهم بعد ذلك ثم فكر الرسول ﷺ أو استشار أصحابه فيمن يؤمره على الوفد منهم فاختلف الشيخان وارتفعت أصواتهما ثم نزلت الآيات فتعلق الرواة في نهاية القصة في أنه هو سبب النزول وأسلوب وترتيب الآيات يبدوا والله أعلم أنه ساعدهم فنداء الله هؤلاء بالإيمان وأن قلوبهم للتقوى يناسب أو ألصق بمن كان في الإسلام سابقاً أكثر من هؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل نزول الآيات ولم يصلوا إلى درجة حتى الآن تطابق قوله تعالى «امتحن الله قلوبهم للتقوى» هذه الآية ترتبط بما قبلها فكأنها تخاطب من خوطب بما قبلها فامتثل النهي سريعاً ولهذا اختتى ثابت بن قيس مخافة أن عمله حبط حتى أرسل له الرسول ﷺ وبشره بأنه من أهل الجنة وكذلك فهم أبو بكر رضي الله عنه كما في رواية البخاري وعمر فلا يكلمان الرسول حتى يستفهمانه» وكما قال أبو بكر في رواية البخاري «آليت ألا أكلمك إلا كأخ السرار» فمدح الله فيهم بما هم به جديرون وهو أن قلوبهم للتقوى . ومن هنا كان صنيع البخاري في غاية الدقة ولم يوفق ابن حجر لتحريره . ومع هذا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . هذا وإن الآيتين الأخيرتين لا يختلف أحد في أنهما نزلتا في الوفد أو فيمن شابه الوفد بنداء أنه من وراء الحجرات كما جاء في بعض الروايات أن ناسا من العرب قالوا ننطلق إلى هذا الرجل فإن يكن نبيا نكن أسعد الناس به وإن يكن ملكا نعش في جناحه فكانت المناداة .

أصواتهم فوق صوت الرسول ﷺ وهو صوت حق «**لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي**» فرسول الله ﷺ لا يقول إلا الحق فإما وحي من الله أنزل إليه كالقرآن وإما وحي ألهمه الله إياه ووفقه به كالسنة في بيان الحق ما هو وبيان الباطل ما هو ، فأي داع ليرفع الناس أصواتهم عليه ويسابقوه في القول وينازعوه وهو الأمين المأمون الحريص على هداية الناس . قال الله تعالى (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**) وقال تعالى (**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين**) .

هذا وما أبلغ الوصل هنا وهو عطف الجملة «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» على ما قبلها فإن الناس قد يظنون أن رفع الصوت المنهي عنه هو ما كان مُسْتَقْبَحاً عند الناس عامة فقط فمن يكلم رسول الله ﷺ ويتأدب معه كما يكلم ويتأدب مع غيره من الناس فلا شيء عليه . وهذه المساواة جاءت الجملة المعطوفة لتردها وتخصص لرسول الله ﷺ أدبا خاصا وتوقيرا فريدا لا يرقي إليه أحد من الناس . ولا ينبغي أن تعطى هذه المنزلة لغيره فهو يجالس ويكلم ويتأدب معه فوق ما ينبغي لفضلاء الناس الذين يجب ألا ترتفع الأصوات فوق أصواتهم كما تدعوا إليه الآداب والأخلاق العامة . وأما رسول الله ﷺ فزيادة على الأخلاق والآداب العامة الإيمان والعمل الصالح فإنه بعد هذا النهي من يرفع صوته فوق صوته ويسوي بينه وبين الناس في الأدب والمجاهرة والإخفاء يحبط عمله وهو لا يشعر أن ذلك يحبط العمل كالمؤمنين ومن يشعر من باب أولي وكأنه لا إيمان له ولا عمل أصلا كالمنافقين . هذه الصورة الأدبية الرفيعة التي هذب الله بها المؤمنين وأدبهم فأحسن تأديبهم ، هيأت نفوسا أبية مؤمنة تعلقت أرواحها بأدب القرآن وسمت أخلاقها مع رسول الله المختار ﷺ .. إنها نفوس تتشوق وتتساءل ما لها بعد انسجامها مع أدب

القرآن وتوقير الرسول ﷺ فيأتيهم الوحي ببشرى سريعة كسرعة توبتهم وتحكي لهم هذه الصورة صورة القلوب التي هي للتقوى لا لغيرها فلتكن المغفرة لهم وليكن الأجر العظيم والثواب الجزيل لهم كذلك .

ما أجمل وأبلغ الفصل هنا كالوصل هناك فإن الجملة «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله . الآية» جواب لذلك التساؤل من هؤلاء المؤدبين بالنهيين . . ! !

وما أروع الفصل بعد هذا ثانية فكأنهم يتساءلون ويستفسرون حرصا على ما حصل لقلوبهم ونفوسهم من أنها للتقوى وأن المغفرة والأجر العظيم ثوابها فكأنهم يقولون هل هناك ما يسلب منا هذه النعمة ويقلب القلوب من التقوى إلى غيرها – لا سمح الله – فقيل إن ذلك لا يكون إلا ممن لا يعقل كهؤلاء الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات . . هذا وقد وصل بين الآيتين «إن الذين ينادونك» و «ولو أنهم صبروا» لمشاركة بين الأمرين في القبح وإساءة الأدب ، المناداة المتكررة من وراء الحجرات وفقدان الصبر حتى يخرج إليهم الرسول ﷺ فقد أساءوا الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام بالمناداة ومع أنفسهم إذ لم يتخلقوا بالصبر . والفصل هنا بين الإساءتين المناداة وفقدان الصبر في غاية البلاغة كبلاغة الفصل هناك بين الإساءتين رفع الصوت والجهر بالقول وبين الأسلوبين أسلوب الفصل الذي علمنا ما فيه من الدقة والبيان .

وختم الآية بقوله والله غفور رحيم ليفتح لهم باب مقابلة السيئة بالحسنة تأليفا لهم من الله تعالى ورسوله إذ خرج إليهم وأكرم رفدهم وعزز وفادتهم وقابل خطيبهم بخطيبه وشاعرهم بشاعره فآمنوا وزودهم بالعطاء وبشرهم بأنهم

أشد الناس قتالا للأعور الدجال فدخلوا في باب الرحمة الذي فتحه الرحمن الرحيم وختم به زلتهم وبدد جفاءهم فكانوا بعد ذلك مجاهدين مؤمنين وهكذا كان رسول الله ﷺ كما وصفه الله تعالى «**وإنك لعلى خلق عظيم**)في سورة القلم آية «٤» قوله تعالى (**ولو كنت فظا غليظ القلب لا انفضوا من حولك**) سورة آل عمران آية ١٥٩ وقوله (**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم**) سورة فصلت آية ٣٤-٣٥ وللدعاة والعلماء في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة لو تمسك بها الجميع لا انحلت صعوبات كثيرة وعقبات في طريق الدعوة والدعاة بل إن هذا الخلق الكريم والقدرة الحسنة فقدها الدعاة والعلماء أو افتقدوها اليوم بين أنفسهم كيف يعامل بعضهم البعض الآخر فعادوا يتحلون بأخلاق الماديين والقوميين وشعارات وأحزاب ما أنزل الله بها من سلطان متأثرين بغيرهم من دعاة الجاهلية وعلماء العلمانية والمظاهر المادية بأشكالها وألوانها - إنا لله وإنا إليه راجعون - فلم يتوقع منهم التحمل والخلق الحسن والقدوة المربية للعوام والجفاة الذين ضل سعيهم كثيرا وساءت أخلاقهم وقبحت آدابهم لسبب إسترخاء الدول الإسلامية . في أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام . وتهافت العلماء ومن يسمون الدعاة على الدنيا ومناصبها ومباهجها وهم بين حاسد وطامع ، وغافل ومفتون ، - إلا من شاء الله - وقليل من عبادي الشكور ...! هذا الإفراط والتفريط ماذا نتج عنه اليوم في دنيانا العجيبة وفي حياتنا المختلطة وواقعنا المر...؟! نسمع أصواتا خشنة ترعد وتبرق ترتفع فوق صوت القرآن والسنة ، داعية ومتعالية في إعلامها الملفق وفي مؤتمراتها وأنديتها المريبة مخططة ومحاولة إسكات صوت الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه والذي كان يزحف عبر العصور في هدوء وصمت حكيم وكان جرس الحياة أي حياة ...؟! صوت تتقبله الآذان بلا

ثقل ويتغلغل في النفوس دون ما صعوبة فيلامس المشاعر الطيبة المؤمنة .

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين أقوالاً في توضيح هذه الآيات اختطف منها ما يلي : قال ابن كثير «وقال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيا في قبره ﷺ دائما ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر لمخاطبة مِمَن عداه بل يخاطب بسكينه ووقار وتعظيم» قال أبو بكر بن العربي : «حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه فإذا قرىء كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى (**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**) سورة الأعراف آية ٢٠٤ وكلام النبي ﷺ من الوحي له من الحرمة مثل ما للقرآن» قال شيخنا محمد الأمين الشنقيطي «ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته وبه تعلم أن ما جرت به العادة من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة إرتفاعاً مزعجا كله لا يجوز ولا يليق وإقرارهم عليه من المنكر» .

الأدب الثالث

٣ – يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمة والله

عليم حكيم * [1]

وأما الأدب الثالث فهو أدب الرواية والإخبار والتثبت فيها والفحص الدقيق لئلا تظلم هذه الجماعة نفسها بترويج الكذب وتلفيق الأنباء فتتربى على تناقضات .. إن المؤمنين الذين لا يسابقون القرآن والسنة ولا ينازعون في الحكم لأنفسهم ولغيرهم ولا يرفعون أصواتهم فوق صوت الرسول ﷺ ولا ينزلونه منزلة كمنزلة غيره من الناس يجدر بهم ألا يروجوا الباطل والكذب بل عليهم أن يدققوا فلا يقولوا إلا الحق ولا يرووا إلا الصواب من القول والفعل تأثراً بمصدر تربيتهم وهو القرآن والسنه .. هذا وقد ضرب المسلمون أروع مثل إمتثالا لهذا التوجيه من الله تعالى في تحري الصدق والتثبت في الرواية وتقبل الأخبار ونعت الرواة وروايتهم والمخبرين وأخبارهم بأوصاف وشروط وضوابط تنزل كل واحد منهم منزلته وتوضح لغيره محاسنه ومساوءه في موضوعية ومنهجية لم تفرق بين الراوي وروايته والمخبر وخبره بل تناول النقاد المسلمون كل ذلك بأسلوب ومنهج دقيق والأمانة التي لم تعرف لغيرهم . فوجد عندنا نحن المسلمين هذا العلم العظيم «علم الجرح والتعديل وعلم الرجال ومصطلح الحديث

---

(١) سبب النزول :

قال ابن كثير ذكر كثير من المفسرين أنها نزلت في الوليد بن عقبة إبن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق وقد روي ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده» وخلاصة الرواية أنه أرسله ﷺ إليهم فعاد قبل أن يصل إليهم لأنه خاف الغدر منهم وهم قد تهيأوا لاستقباله فرجع إلى الرسول ﷺ فقال : إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم فأرسل إليهم الرسول ﷺ من يتثبت في ذلك وفي بعض الروايات : أنه خالد بن الوليد فوجد الواقع غير ما جاء به الوليد . وفي بعض الروايات أنهم جاءوا بعد ذلك إلى الرسول ﷺ لما استبطأوا طلب الرسول ﷺ للصدقات فبرأوا أنفسهم مما نسب إليهم . فنزلت الآية .

ما يتعلق بالسند والمتن منه على حد سواء ..! » هذا ويجب التحفظ والحيطة من الكذب والكذبة ومن الترويج والمروجين الذين يخطئون وهم لا يشعرون فكيف بالذين يشعرون بخطئهم وهم يقصدون ..؟ فإذا لم نتثبت من هؤلاء وما يروجونه فإننا سنظلم أنفسنا ونجهل على غيرنا ولا ينفعنا الندم بعدما نحمل هذه الأوزار ونحملها غيرنا ...!

ولو أن الرسول ﷺ وولاة الأمور في أي مكان وفي أي زمان بعده أطاع أولئك وأطاعنا هؤلاء وجاملونا في ذلك لجهدنا ووقفنا في فساد وهلاك عظيم ولكن الله سبحانه وتعالى الذي ربانا على أن لا نفعل ولا نقول إلا ما دعانا إليه القرآن والسنة حبب إلينا الإيمان والصلاح والمصلحين وكره إلينا الكفر والعصيان والعصاة فكنا بنعمته من الراشدين المهتدين تفضلا وكرما منه . وهو العليم الخبير بالصادقين من الكاذبين والحكيم في أن كان هذا صادقا ومصلحا وذاك كاذبا وفاسقا ولا ينبؤك مثل خبير .

إنها صورة إعلامية رائعة يعلمنا بها العليم الخبير كيف نأخذ من أنفسنا ونتلقى من غيرنا فمن من نتلقى وماذا نتلقاه ..!؟ وحبذا لو فهم إعلامنا وكتابنا هذه التربية القرآنية واهتم المربون بها وانطلقوا من مفهومها كما كان السلف الصالح لما راج باطل كثير في مجتمعنا الإسلامي قال ابن كثير عند هذه الآية « يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبا أو مخطئا فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال .

٤ – وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون[1]

إن النبأ الكاذب والرواية الصادرة من الفاسق قد يؤدي إلى قتال وتشاجر بين المؤمنين ، وقد يترتب عليه العدوان على الآمنين والأبرياء ، فيترتب على ذلك أن ينتهك المجتمع المسلم أدبا أمرهم الله سبحانه وتعالى بلزومه بينهم وهو صون دمائهم وأموالهم وأعراضهم كل ذلك لا يحل بل هو حرام كما جاء في الأحاديث الشريفة منها : من حديث أبي هريرة «وكونوا أعباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره .. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» . إنه لقاعدة عملية نابعة من أدب التشريع

---

(١) سبب نزول الآيتين :

قيل لرسول الله ﷺ لو أتيت عبدالله بن أبي لنصحه فانطلق إليه وركب حماراً وانطلق معه المسلمون فلما جاء قال المنافق «إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك فقال الرجل من الأنصار وقيل إنه عبدالله بن رواحة والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك فغضب لكل واحد منهما رجال من قومه وتشاجروا وتضاربوا .حتى أسكنهم الرسول ﷺ فنزلت الآية . وقيل إن رجلاً من الأنصار كانت عنده امرأة من حي آخر من الأنصار فأرادت أن تزور أهلها فحبسها فأرسلت إلى قومها بذلك فجاءوا لنصرتها فهب قوم زوجها لنصرته فتدافعوا بالجريد والنعال والأيدي فبعث إليهم الرسول ﷺ وأصلح بينهم – فنزلت – وقيل نزلت في رجلين من الأنصار بينهما شيء غير ما ذكر من شأن المرأة . ولا يخفى أن هذه الآية عامة في كل خلاف وعدوان حصل بين المسلمين سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو قبائل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الإسلامي الذي يربي النفوس لتكون وحدة وجسداً واحداً إذا اشتكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . فلا عدوان ولا ظلم ، ولا بغي ولا قتال ، ولا غدر ولا غش بين المؤمنين فالله سبحانه وتعالى ندبهم إلى إعادة البشرية إلى الحق وإلى الأخوة الإسلامية ، فكيف يقومون بذلك وهم يظلم بعضهم بعضاً !؟ ..

« **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** » هذا الشرط كلما وجد في أي زمان ومكان وافتتنت به طوائف من المسلمين . فعلى بقية المؤمنين أن يهبوا لنصرة الفريقين بالإصلاح بين المتخاصمين والمتشاجرين والمتقاتلين . فإن عاد كل فريق إلى رشده ولزم بأدب الأخوة الإسلامية وإلا وجب الوقوف ضد الفريق الباغي الظالم من الطائفتين والوقوف جانب الفريق المظلوم وهذا هو الإنتصار لكل فريق والنصح لهم كما جاء في حديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « **أنصر أخاك ظالما أو مظلوما** . قلت يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما قال ﷺ **تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه** » ؟! هذا وقد وصل جملة « وأقسطوا » على ما قبلها لأن القسط أساسي في الإصلاح وفصل بين جملة « إن الله يحب المقسطين » على ما قبلها لأنها جواب لسؤال نشأ من الأولى كأن سائلا قال لماذا نقسط ونعدل ؟ فأجيب بقوله « إن الله يحب المقسطين » والمؤمنون الحقيقيون لا يحبون إلا ما يحبه الله وفصل ثانية بين قوله « إنما المؤمنون إخوة » وما قبلها لأن هذا جواب لسؤال مقدر وهو : كأنهم قالوا لماذا نصلح بين المتشاجرين من المؤمنين ؟ فأجيبوا « إنما المؤمنون إخوة » والأخوة تدعوا الإهتمام بالأخوان .

وهذا المبدأ والأدب الرفيع من شرع الله وحكمه فمن استهان به وعطله وأخذ

بغيره فقد ترك حكما وأدبا أمرنا الله به وأرشدنا إليه وألزمنا إياه والمسلمون اليوم تشتتوا بين حلول مستوردة من ملل الكفر – مع الأسف – فناشدوها التدخل فيما بينهم والنظر في اختلافاتهم وكأنهم بهذا يؤمنون بشرعيتها وبصلاحية تلك الخزعبلات وأنهم سيعيشون تحت سلطان محكمتها ويبقى لهم إيمانهم وإسلامهم ووحدتهم وقوتهم وهيبتهم والواقع يقول لهم هيهات هيهات لما توعدون . ألم يتأملوا قوله في شأن بني إسرائيل – وهم يحرفون الكلم عن مواضعه – يوم تحاكموا إلى الجبت والطاغوت وعندهم حكم الله قال تعالى «**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً**» **أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً** [سورة النساء آية ٥١–٥٢] وقوله تعالى «**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون**» سورة آل عمران – ٢٣ فنحن وإياهم من آدم وآدم من تراب ولقد اختار الله أصولهم بنبوات كثيرة واغتروا بذلك دون أن يعملوا بما جاءهم من الله تعالى فيزعمون أنهم شعب الله المختار .. فإذا وقفنا اليوم في كل مسرح وميدان ونزعم أننا أباة الضيم وأننا من سلف كذا وكذا ونحن منهم دَماً وشعوراً ولم نعمل بهذا الكتاب فإنا واليهود سواء . غير أنهم حرفوا وعطلوا كتبا موقتة ونحن عطلنا كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه محفوظاً معجزاً وإذا كان أجيال بني إسرائيل قبيل الاسلام تلقوا التوراة والانجيل محرفين وكانت المسئولية على من قبلهم في التحريف والتبديل ومن بعدهم من سلالة القردة والخنازير لا يدري بين الصواب والخطأ قبل نزول القرآن .. فإن أجيالنا نحن المسلمين اليوم وغدا وصلها القرآن والسنة مصونين وممنوعين من التبديل والتحريف .. فما العذر وما الجواب لله تعالى يوم الدين .؟!!

إن هذه الآيات لتضع للمسلمين سياسة محكمة أصيلة نابعة من الحب في الله تعالى رائدها الإيمان الراسخ الذي تصف به الآيات المؤمنين المنتدبين لإصلاح ذات البين من قبل الله تعالى . وكانت هذه السياسة تنطلق من بين الفردين المسلمين إلى الجماعتين وإلى الدولتين وإلى الشعوب والقبائل التي يجمعها الإيمان والإسلام .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى دعا المؤمنين وأوجب عليهم الوقوف ضد المعتدي منهم والإنتصار للمظلوم منهم فكيف إذا كان أحد الفريقين المتخاصمين من غير المسلمين بأن كان يهوديا أو نصرانيا أو شيوعيا ووثنيا وماديا فالأمر هنا بالإصلاح والإنتصار للمظلوم المستضعف آكد وأوجب على المؤمنين عامة .. هذا نظام الله سبحانه وتعالى وتعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة .

أما نظام الجاهلية فإنه يقول لكل أحد نفسه مع مغامرات وخبث وغدر وغش وهو النظام المضاد لله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المحكمات الواضحات في أن الله سبحانه وتعالى أوجب على كل مسلم أن يهتم بأخيه المسلم في أي مكان وفي أي زمان ينصره وينصحه ويكثر به قوته وسواده ولا يختلف معه ويتدخل في شؤونه لأن الله سبحانه وتعالى أدخله في شؤونه . وأما نظام الجاهلية فإنه يقول لا يتدخل أحد في شأن الآخر ولو كان الآخر هذا يذبح إخواننا في الإسلام والإيمان ويشتتهم ويشردهم ويصادر أملاكهم وحرياتهم وهو لا خوف عليه ولا هو يحزن لأنه كما تقولِ الجاهلية لا دخل لأحد بينه وبين من في قبضته وجبروته ...!!

ورب الكعبة كم انتصر الكفر والغرب ومن والاه ممن يزعم الإسلام تحت هذه النظرية الفاسدة التي لا تحقق للمسلمين المشتتين في العالم بين دول الكفر أن ينتصر بعضهم لبعض في الوقت الذي كانت الجاهلية والكفر تتساند

وتتعاطف بأخوتها المادية فتنتصر لبعضها من داخل بلادها وداخل بلاد المسلمين ...؟!! ورب الكعبة كم خسر المسلمون حقوقا وتساندا وتعاطفا بينهم وهم أشتات في العالم بموجب هذه النظرية التي سلبت من المسلمين صلاحية خولهم الله سبحانه وتعالى إياها وندبهم إليها فتأخر وتعطل بذلك حكم الله سبحانه وتعالى القائل «**فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .. إلخ**» ولا يخفى أن هذه الآية أصل في قتال البغاة من المسلمين كما في آية أخرى في سورة المائدة عامة في قتال البغاة من المسلمين وغيرهم «**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**» ٢٢-٢٣ .

الأدب الخامس

٥ - يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .[1] .

---

(١) سبب النزول:

جاء في رواية الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها قلّ أحد منهم إلا وله ثلاثة أسماء فيجعل الرجل يدعوا الرجل بلقبه فيغضب فنزلت هذه الآية . هذا الخبر أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه والنسائي وأبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه . هذا وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول أسباباً أخرى بلا سند كعادته وهو حاطب الليل ومثله كذلك يحشد السيوطي أسبابا أستبعد أن تصدر من الصحابة وكذلك ابن الجوزي وهو من هو في التساهل ومع هذا فالآية عامة في من يصدر هذا أو مثله منهم وأصح الروايات ما سبق .

هناك أدب آخر توجهنا إليه السورة ويربينا عليه القرآن وأراده الله سبحانه وتعالى منا ودعانا إليه وعلمنا إياه رسوله ﷺ القائل «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» والقائل «**بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه**» والقائل «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**» قال ابن كثير أي إحتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر المحتقر له» ذلك الأدب هو أدب الإسلام الذي لا يختص بجناح خاص في الحياة ولا بخصلة من الخصال . فكما أنه أدب مع فريقين من المسلمين يقتتلان أو يختصمان أو يختلفان كما مر فهو أدب كذلك يرعى لسان المسلم ويصونه ويقوم نظراته نحو إخوانه من المسلمين ويحيطه بسياج من الخلق الكريم والأدب الرفيع ... فلا يسخر ولا يصخب ولا يعير ولا يحقر ولا يستهزىء . ولا يلقب المسلمين بما يكرهون ويصفهم بما ينال منهم ومن إعراضهم وهيئآتهم وألوانهم .. فإن ذلك كله فسوق ومروق من الأدب الإسلامي وعصيان ...! مما يسبب للرذيلة السيادة وللمنكر الظهور وللظلم والظلمة رواج للبروز بين مجتمع أدبه الله بكل حسن وجمال من القول والفعل هذا ولخطورة إنتشار السخرية والإستهزاء بين المؤمنين وهم من عنصر واحد وقد جمعهم الإيمان ولا جامع سواه . لخطورة هذا فصل الله سبحانه وتعالى هذا تفصيلا فذكر الرجال جانبا والنساء جانبا ولم يغلب نوعا على نوع كعادة القرآن الكريم ونكر لفظة قوم ونساء والفعل لا يسخر» يعود إلى مصدر ينكر ليفيد ذلك العموم والشمول في النهي والتوجيه . وأبدع في البلاغة والبيان فجعل اللامز هو الملموز ، لأن من يلمز أخاه المسلم فقد لمز نفسه ومن لقبه بالسوء فقد لقب نفسه بالسوء «**ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب**» كما قال في آيات أخرى «**ولا تقتلوا أنفسكم**» النساء «٢٩» وقوله «**فسلموا على أنفسكم**» النور «١١» فالمسلمون جسد واحد ومن غير المعقول أن يلمز المسلم ويسخر من نفسه

محاولا أن يترفع بذلك وتعلو مكانته به . هذا وقد جاءت آيات كثيرة تهدد وتندد بالذين يتأدبون بهذا الأدب السيء كالكفار والمنافقين . قال تعالى « **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون** » سورة البقرة «١» وقال « **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** » التوبة «٧٩» وقال « **زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** » البقرة «٢١٢» وقال « **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون .. الآيات** . » سورة المطففين من – ٢٩ إلى آخر السورة . وقال « **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** » سورة هود آية «٣٨» وقال « **ويل لكل همزة لمزة** » سورة الهمزة . هذا وليعلم الساخر والمستهزىء والمحتقر بالمسلمين أنه يدخل في قوله تعالى (**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين** » . سورة التوبة ٦٥ – ٦٦ .

وهذه الآيات قد بينها الرسول ﷺ بيانا شافيا وفسرها تفسيرا واضحا في نصوص كريمة تناقلتها الصحاح والسنن والمسانيد والتفاسير . يحسن بنا هنا أن أنقل طرفا منها لتكون على بينة أيها القارىء رزقني الله وإياك التمسك بالسنة .

قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا** » . وقال « **يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته** » وقال : « **من**

أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم ومن كسا ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » وقال : « **ثلاث لازمات لأمتي . الطيرة والحسد وسوء الظن** » فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ « **إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض** » وقال « **إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا** » .

قال ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما « رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول « **ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا** » .

عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال ﷺ « ذكرك أخاك بما يكره . قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال ﷺ **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** » .

قال رسول الله ﷺ « ما من امرىء يخذل أمرءا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته وما من امرىء ينصر امرءا مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته » .

وقال ﷺ « **من حمي مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبّه حبسه الله**

تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» .

هل للمغتاب توبة ؟ لا شك أن له توبة لأن الله تعالى يقول (**واتقوا الله إن الله تواب رحيم**» ولكن للتوبة شروطا وأمارات فهي ليست بدعوى كما أن الإيمان ليس بدعوى . قال ابن كثير «قال الجمهور من العلماء:طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على ألا يعود وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه . وقال آخرون لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذن أن يثني عليه ، بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك» .

هذا وإن أمر الغيبة والنمية والظن في غاية الخطورة من وجوه :

الأول : في ذاته كما بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله ﷺ فيما سيق من النصوص وقدمته من شرح وتحليل للآيات .

الثاني : أن هذا السلوك الخطير قد يلتبس أمره أو حاله على كثير من المسلمين الذين أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر والبدع ويغيروها وينصحوا المبتدعة ويخالطوهم بذلك أو يجتنبوهم كل هذا يدعو المسلم أن يتكلم ويظن ويتعرض للآخرين فمن الناس من يترك هذا الواجب الذي أوجبه الله عليه فرارا مما نهت عنه النصوص في دعواه .

الثالث : ومن يقوم بذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقارعة البدع والمبتدعة يتعرض لنيل بعض الناس بأنه مغتاب وكثير الظن والتحسس وهو حق يراد به باطل .

والواقع أن الموضوع يحتاج إلى دراسة وافية ونحن في أيام يحتاج فيها الداعي إلى صبر كثير وتحمل قوي وفي نفس الوقت الدعوة تتطلب أن تظهر حقائقها وأن يجلي عن دقائقها لأنها جهلت وتنكر لها الناس وكاد الناس أن يدعو الباطل حقا والحق باطلا . والحرص على اختصار يمنعني التفصيل في الموضوع وأكتفي بقول عالمين مفسرين لعل فيه إشارة إلى دراسة الموضوع .

الأول : ابن كثير قال بعد ذكره الأخبار السابقة «ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ لما استأذن عليه الرجل الفاجر «**ائتذنوا له وبئس أخو العشيرة**» وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم «أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه على عاتقه» وكذا ما جرا مجرى ذلك ثم بقيتها على التحريم الشديد» .

الثاني : قول الألوسي في روح المعاني «وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أسباب :

١ – التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن له قدرة على إزالة ظلمه أو تخفيفه .

٢ – الإستقامة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته . «قلت ولمن يخاف أن يقع فيه لجهله أو لاغتراره به» .

٣ – الإستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له أو ما طريق تحصيل حقي .

٤ – تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين للإفتاء أو الإقراء مع عدم أهلية فتجوز إجماعا بل تجب وكأن يشير ولم

يستشر على مريد تزوج أو مخالطة لغيره في أمر ديني أو دنيوي ويقتصر على ما يكفي ... ومن ذلك أن يعلم من ذي ولاية قادح فيها كفسق أو تغفل فيجب ذكر ذلك ..

٥ – أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمر ظاهرا فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه دون غيره .

٦ – للتعريف بنحو لقب كالأعور والأعمش فيجوزوا إن لم يمكن تعريفه بغيره ويقصد التعريف لا التنقيص وأكثر هذه الستة مجمع عليه ويدل لها من السنة أحاديث صحيحة مذكورة في محلها كالأحاديث الدالة على قبح الغيبة وعظيم آثامها وأكثر الناس بها مولعون . » هذا ليعلم القارىء كما هو معلوم أن اختلافا في ما يتعلق بغيبة الكافر والذمي ونحوهما من غير المسلمين وارد هنا وتكلم فيه العلماء .

الأدب السادس

٦ – يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١)

---

(١) سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما فنام يوماً فلم يجداه فضربا الخباء وقالا ما يريد سلمان شيئا غير هذا أن يجيء إلى طعام مصرود وخباء مضروب فلما جاء أرسلاه إلى الرسول يطلبان الإدام فقال له

هذا النداء الأخير من النداءات الحبيبة في السورة ، نداءات المؤمنين ، وهو نداء يحمل في همسه ورقته أدبا عظيما وخلقا كريما يستأصل به أمراض قد تتعلق بالمؤمنين في نفوسهم ومشاعرهم وضمائرهم ومن ألسنتهم .. إنه أدب يقيم سياجا قويا حول حرمات المسلمين فلا تحلل ، وكراماتهم فلا ينال منها ، وأعراضهم فلا تنتهك ، وحرياتهم الممنوحة لهم شرعا فلا تقيد وتصادر .

إنه توجيه من الله الحكيم الخبير بما في النفوس للمؤمنين ، يريد منهم أن تقوم جماعتهم ومجتمعهم أينما كانوا وكيفما كانوا على أسس نظيفة بعيدة من التهم والشرور ، نقية مهذبة بريئة من كل الهواجس والشكوك ، فلا يعكرون وينفضون حياتهم وأخوتهم الإسلامية وترابطهم بقلق وإرجاف ونهب لنفوسهم ... وهذه الآية لها ارتباط وثيق الصلة بما قبلها ، لقد أدبنا بترك السخرية والنبز بالألقاب ، وكل ذلك من الظن الكثير الذي يتقاذف النفس الإنسانية الأمارة بالسوء ويقلقها إلا من رحم الله ومن التجسس والتحسس الممنوع ، وإن نبز الناس بألقاب يكرهونها ونعوت لا يرضونها وهم منها بـراء أو أنهم ألزموها دون رضاهم وإن هذا لهو الغيبة بعينها ، ولا يسلم من السخرية ولمز الناس ووصفهم بما يكرهون إلا من سلم من الظن والظن مقدمة التجسس والتحسس ومن تجسس لا شك أنه سيغتاب ويقول ما في أخيه وما ليس فيه ، وسيقع في أعراض الآخرين ودمائهم وحقوقهم وذلك هو أكل لحومهم بعينه ..! ومن يأكل لحم الآدمي إلا سبع ضار مفترس ؟! بل الحيوان المفترس في غالب الأمر لا يأكل لحم أخيه من جنسه ..! ولكن الظان المتجسس

الرسول قل لها قد إئتدمنا فنزلت . وقيل في الشيخين مع رجل كما أخرج الضياء المقدسي في المختارة عن أنس أن الشيخين مع رجل يخدمهما في السفر فقالا «إن هذا لنؤوم» فاستيقظ فأرسلاه إلى الرسول ﷺ ... فنزلت .

المغتاب تفوق على السبع المفترس في الشره والوحشية إذ هو يأكل لحم أخيه ميتا .. و لبشاعة هذه الصورة وقبح هذا المنظر جاء أسلوب الإستفهام في غاية الجمال ودقة البيان «أيحب» وكان من الواضح بعد هذا الأسلوب أن يقال بعده بالكراهية «فكرهتموه» ومع كراهتهم لهذا وأنه في ظاهره لا يكون من أحد فهو تمثيل لمن يتجسس ويغتاب وهما واقعان ..! وهذا السلوك الخطير لا يعصم منه الإنسان غير التقوى ولكن هل من يتجسس ويغتاب تبقى معه التقوى وتلابسه ..؟ أسلوب الآيات يشير إلى أنه ليس من الأتقياء فقد فصل بين الجملة «واتقوا الله» وجملة «إن الله تواب رحيم» إشارة إلى أن التقوى غير حاصلة للمتجسس والمغتاب إلا بعد التوبة من ذلك فالجملة الأولى نشأ منها سؤال وهو كيف تنتهي ؟ والجواب أن تتوبوا ولا تظنوا ولا تجسسوا ولا تغتابوا ...

والظن على أربعة أقسام عند بعض العلماء :

١ – المحظور والممنوع وهو سوء الظن بالله وبالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة .

٢ – المأمور به وهو الظن الذي تنفذ به بعض الأحكام في غالب الظن إذا لم تكن فيها نصوص قطعية الدلالة .

٣ – المباح كالشك في الصلاة للإمام لأن النبي ﷺ أمر بالتحري والعمل على ما يغلب في ظن الإمام .

٤ – المندوب إليه وهو إحسان الظن بالأخ المسلم وإن كان فيه ما فيه وهذا الظن مأمور به وعليه ثواب .

الأدب السابع

٧ – يا أيها النّاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير. (١)

عرضت السورة فيما سبق آدابا وضيئة في نداءات متكررة يصف الله بها المنادين بالإيمان ليكون هذا الوصف المحبب إلى النفوس رادعا يردعهم عما نهاهم عنه وداعيا يدعوهم إلى التمسك بما أمرهم به وهذا هو حقيقة الإيمان. ثم بعد ذلك جاء النداء الأخير في السورة «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**» وكأنه دليل لتلك الدعوة الناهية الآمرة .. كعادة القرآن إذ لا يعرض على الناس دعوة إلا وأتى بدليل يعترفون به فهو يقول لهم هنا : إن من أدبكم بتلك الآداب وألزمكم إياها وجملكم بها ، هو الذي خلقكم وصنعكم بقدرته من ذكر وأنثى . وإن من وحدكم بالإيمان وألف بين قلوبكم هو الذي وحد عنصركم فخلقكم منه ، فأنتم من أصل واحد وإن كنتم شعوبا وقبائل . فليس هناك ما يدعوا إلى الإختلاف والفرقة ويلزم العصيان والعدوان . ولا ما يحبب التجسس والغيبة فإنكم في التركيب شيء واحد ، فما يبحث فيه بعضكم ويستطلعه من البعض الآخر يوجد فيه ويكره أن يبحث فيه ، فكلكم من آدم وآدم من تراب ..!

---

(١) سبب النزول :

قيل إن بلالاً أمره الرسول ﷺ أن يؤذن على ظهر الكعبة يوم الفتح فوجد بعض الناس من نفسه شيئا كالحارث بن هشام قال : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال عتاب بن أسيد : الحمدلله الذي قبض أسيدا قبل اليوم وقال سهيل بن عمرو : شيئا آخر وقال أبو سفيان كذلك هذه الأقوال حكيت عن مقاتل . وحكي عن ابن عباس أنها نزلت في رجل لم يفسح له في مجلس الرسول ﷺ وقيل غير هذا . وهي أقوال يذكرها الواحدي في سبب النزول والخازن والثعلبي والكشاف بلا سند وهم حطاب ليل يعزوها إلى بعض الصحابة أو التابعين والله أعلم .

فلا تضيعوا حياتكم في الهرج والمرج ولا تفسدوا مادتكم الخلقية الموحدة ووظيفتكم العبودية لله بدعوى الأفضلية وزعم التفوق وإنما تعارفوا على هاتين الحقيقتين وهما : أنكم من أسرة واحدة أشقاء لا تختلف لونا وشكلا . وأن معبودكم الحقيقي بحق هو خالقكم . والإعتراف بهاتين الحقيقتين في الأدب القولي والأدب العملي عليه تتفاوتون أو به تتفاضلون «**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» وما أجمل التعليل من العلي القدير «لتعارفوا» فالمتعارفون لا شك أن كل واحد منهم سيعترف بحقيقة الآخر وبعدها قد يظن البعض من هذه الشعوب والقبائل أنه أفضل بعلمه أو بنسبه أو بوطنه أو بلغته أو بلونه أو بماله وطوله وقوته» فكأن هذا الظن تساؤل وتردد منهم فأجيب من يزعم شيئا من ذلك بجواب مقنع مؤكد مراعاة لتردد أو إنكار يحصل من بعض هؤلاء والجواب هو قوله تعالى (**إن اكرمكم عند الله أتقاكم**) . وقد يأخذ بعض الناس بهذا المبدأ الذي قرره الله تعالى مغالطا فيزعم أنه أتقى الناس أو أن فلانا من الناس أتقى من فلان وإن يكن ما يزعم حقيقة وكأن هذا تردد منه أو إنكار فأجيب كذلك بقوله تعالى (**إن الله عليم خبير**) فالله أعلم بمن اتقى ولم يوكل إلى الناس تحديد من يخافه . هذا وإن ذكر السورة هنا للشعوب والقبائل وأمر الله هناك فيما سبق المؤمنين أن يصلحوا بين فريقين منهم تقاتلوا أو تخالفوا بين الأمرين النهي عن السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة وإن ذلك كله لدقيقة قرآنية في ترابط موضوعات السورة .

قال الأستاذ سيد قطب عند هذه الآية «وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة والعصبية للبيت وكلها من الجاهلية وإليها تتزيا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء وكلها جاهلية عارية من الإسلام وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل

راية واحدة راية الله ...» .

الأدب الثامن

٨ – قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم *

إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون * قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم * يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون * [1] .

هؤلاء صنف آخر من المسلمين ليسو كأولئك الذين كانت قلوبهم للتقوى وكان لقبهم دائما الإيمان كما عرفنا في المناداة الخمس . أما هؤلاء فلا يطول الكلام معهم ولا تعرض عليهم الأداب الإسلامية كما كان مع أولئك العلماء المدركين الحقيقة . إنما هؤلاء في حاجة إلى أن يعلموا ما المراد بالإيمان أولا وقبل كل شيء هل هو دعوة تقال باللسان فقط أم إنه حقيقة تتجاوز اللسان

---

(١) سبب نزول الآيات :

قال مجاهد نزلت في بني أسد بن خزيمة وقال قتادة نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ قال ابن كثير والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد» . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاءت بنوا أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله ﷺ «إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» فنزلت .

إلى القلب ثم يشع نورها من القلب فينعكس في الأقوال والأعمال وفي الحركات والسكنات . هذا ما تضمنته خاتمة السورة . هذا الصنف من المسلمين الذين لم يختلط الإيمان بقلوبهم حتى الآن . فترد عليهم زعمهم أنهم آمنوا كما آمن المهاجرون والأنصار الذي تبوأ الإيمان قلوبهم وكانت أقوالهم وأفعالهم صادقة ومشهود لها بالإيمان في كل المواقف . وهم الذين يعينهم الله عز وجل بقوله (**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**» هذه هي حقيقة الإيمان التي وجه الله بها هؤلاء الأعراب بعد ما نفاها عنهم بقوله (**قل لم تؤمنوا**) لأنهم لا تزال شكوك ومخالفات تراودهم نحو الرسول ﷺ ولم يساهموا في الجهاد بأموالهم وأنفسهم كالمهاجرين والأنصار فمن أين إذن تكون لهم تلك المرتبة التي جعلت أولئك المؤمنين ينادون بالإيمان خمس مرات في السورة وهي تصدر منهم بعض المخالفات من غير قصد ولكنهم سرعان ما ينبذوها ويتوبوا منها أما هؤلاء الأعراب فأمرهم لا يزال بسيطا وإسلامهم كان جديدا ولم يتمرن وينعكس في أخلاق وآداب ترفع هذا الإسلام إلى درجة الإيمان التي زعموها لأنفسهم .

هذا ويرى بعض المفسرين أن هؤلاء الأعراب كانوا من المنافقين : وممن رجح ذلك من المتأخرين شيخنا محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : في الأضواء . فقد ناقش المراد بقوله «قل لم تؤمنوا» فهل هو نفي الإيمان أصلا فليسوا من المسلمين الحقيقيين . بل هم من المنافقين الذين أسلموا في الظاهر وهم كفار في الباطن ؟ أو نفي كمال الإيمان فيكون المراد بأسلمنا أنهم حقيقة من المسلمين ولكن بدرجة دون درجة الإيمان ومعلوم أن هناك خصوصا بين الدرجتين يقول شيخنا : وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك

وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم (**ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر**) .

وممن يرد هذا من المفسرين ابن كثير إذ يقول رادا على البخاري في كونهم من المنافقين قال بعد ذكره أخباراً تفرق بين الإيمان والإسلام كحديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان . «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك» قلت : ما ذهب إليه ابن كثير أعجب إلي وأوضح في أنهم ليسوا بمنافقين للأمور التالية .

١ – الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الإيمان واستدرك بعد هذا النفي فأثبت لهم الإسلام وهو درجة دون الإيمان ثم أثبت أن الإيمان لم يدخل كلية في قلوبهم ولكنه في الطريق فقال «**ولما يدخل الإيمان في قلوبهم**» ولما عند أهل العربية تفيد التوقيت فهي هنا تشعر إلى أن الإيمان لم يتكامل لهم وقوله «بلما» ليس بنفي متكرر معطوف على «قل لم تؤمنوا» وهذا الأسلوب لم نعهده في القرآن عندما يتحدث في شأن المنافقين فإنهم يسلخهم من كل شيء كقوله تعالى «**ومن الناس من يقول آمن بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله الآية**» .

٢ – قوله (**وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا**» يدل على أنهم لهم من الأعمال الصالحة شيء لا ينقص إذا أطاعوا الله ورسوله فإن نقص من بعض المخالفة يدل كذلك على أنهم مسلمون .

٣ – قوله (**قل أتعلمون الله بدينكم**) أثبت لهم الدين هنا وهو الاسلام وعاقبهم في تزكية النفس ولم نعهد مثل هذا الأسلوب مع المنافقين الذين زلزلهم القرآن وسلبهم كل حقيقة .

٤ – قوله (**يمنون عليك أن أسلموا .. الخ**) أثبت لهم الإسلام كذلك وأنكر عليهم منتهم على رسول الله ﷺ ولم يكذبهم على أنهم مسلمون . وخلاصة القول أن أسلوب الآيات هنا لا يدل على أنهم منافقون ويخالف الأساليب التي عهدناها في القرآن في شأن المنافقين .

٥ – الوحدة الموضوعية في السورة وخلاصتها

١ – لا يستطيع أحد مهما أوتي من البيان وفصل الخطاب أن يقارب أو يماثل هذه الصورة المعجزة في السورة فقوله تعالى (**لا تقدموا بين يدي الله ورسوله**) هذه الجملة هي موضوع السورة وما جاء بعدها إلى نهاية السورة كله تفصيل وتطبيق للتقدم بين يدي الله ورسوله فرفع الصوت والجهر بالقول والمنادات غير الأدبية والنبأ الكاذب وترك النصح لفريقين من المسلمين اختلفوا والسخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة والمفاخرة ودعوى الإيمان باللسان دون العمل كل ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله .

وأي وحدة وموضوعية أعمق من هذا الايجاز «لا تقدموا» وبعده هذا التفصيل الآخذ بعضه ببعض ...؟! .

٢ – السورة هذه خاصة بعرض آداب ثلاثة على المسلمين «أدب مع القرآن وأدب مع الرسول ﷺ وسنته وأدب مع المسلمين» . وهي فيما يبدوا صنفت المسلمين إلى صنفين : صنف تجاوز درجة الإسلام إلى درجة الإيمان فهم المسلمون المؤمون وهذا الصنف عقابه كثير وحسابه عسير في الدنيا لأنه هو

الذي عرف الإيمان وخالط بشاشة قلوبهم . وهؤلاء تحرص عليهم السورة أشد الحرص فلا تدع لهم مجالا ليسترسلوا في مخالفة الآداب الثلاثة المذكورة . فقد كانت مناداة هؤلاء دائما بالوصف المحبب إلى نفوسهم والمحدد درجتهم والمشعر بعظم المسئولية المبنية على علم من عرف الإيمان ونواقض الإيمان ومنه تدرج خطابهم في عقاب لم يفرق بين الحكم بما أنزل الله تعالى قد يترفع به البعض على البعض أو كلمة لا يلقي لها بالا في السخرية أو في الظن أو في الغيبة إلى أن خوطبوا في المرة السادسة وعندها إلتقوا مع غيرهم «يا أيها الناس» ممن لم يصلوا إلى درجة الإيمان وهم الصنف الثاني الذين كانت الوقفة معهم في ذات الإيمان وفي أدب دعوى الإيمان . وهؤلاء المسلمون حقيقة جنس آخر وأولئك جنس آخر وإن كانوا جميعا تحت لواء الإسلام فبينهم من التفاوت كما بين درجات الجنة وهي كلها من الجنة .

٣ – السورة لا تزال تعرض علينا هذه الآداب تحت لواء الإيمان . فالنداءات المتكررة الموجهة إلى المؤمنين كلها تركز بواسطة هذا الوصف الذي لا نمل من ذكره ولا يمل المسمون به من نداءاته – نداءات تطهر المؤمنين من كل دنس وتدعوهم إلى أن يزيلوا عن أنفسهم العوالق المباينة للإيمان ، وكأنهم بالإيمان ألصق وبجماله وأدبه أقرب وبتربيته وتهذيبه كانوا مؤمنين ، وما عدا الإيمان إنما هو عارض في الطريق عرض – كسحابة صيف سريعا تنقشع – كلما عرقلت هذه العوارض وتماسكت بهؤلاء المؤمنين في سيرهم وفي حياتهم أزاحها الإيمان وطرحها المؤمنون عن أنفسهم ، وترفعت آدابهم الجمة وأخلاقهم الحسنة عنها ...!

إنهم المؤمنون الذين لا يداومون إلا على الحق ولا يفارقون التوبة لأنهم عبيد غير معصومين يخطئون فيتوبون ويطلبون الحق فيوفقون ويدعون الله في

السراء والضراء فيستجابون ... إن وصفهم بالإيمان لا ينتقل عنهم لأنهم من الإيمان بل يلازمهم في كل حال من الأحوال ، أما تلك العوالق فهي تزول عنهم وينفصلون عنها كلما سمعوا هذا النداء الحبيب نداء الرحمن الرحيم وتلقفته أفئدتهم الحية ونفوسهم المتصلة بالله ، واستبشرت به جماعتهم المترابطة ، ووحدتهم المتماسكة ، وأخوتهم المتراحمة ، إنّهم جماعة هي عقبة العقبات في طريق الظلم والعصيان ، جماعة لا يمسها مس من الشيطان ، ولا تذرو الرياح الجاهلية ريحها ، فهم أصلب من الجبال الشوامخ وأدوم من الزمن الدوار على إيمانهم . أولئك هم المفلحون ... وأولئك هم أصحاب رسول الله ﷺ وهم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وفي أدبهم وأخلاقهم مع القرآن العظيم والرسول ﷺ وأنفسهم الأبية يتنافس المتنافسون ويتزاحم المتزاحمون ويتعاظم المتعاظمون تربت يداكم ..!

وإلى هذا الإيمان الذي كان يمشي على الأرض هونا «في صورة رجال» وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما ينتسب المنتسبون وينتمي المنتمون .

(أولئك آبائي فجئني بمثلهم – إذا جمعتنا يا جرير المجامع) . اللهم أجعلني منهم وأحيني على سيرتهم ما أبقيتني وأحشرني يوم لقائك في زمرتهم إنك بي لطيف كريم تحب العفو فاعف عني ، وقوّني خدمة لكتابك واتباعا لرسولك وعنادا لأعدائك وأجعلني سهلا هينا للمؤمنين وارزقني شدة وغلظة على الكفر وأهله .

المراجع

١ – فتح الباري على صحيح البخاري .

٢ – تفسير الطبري .

٣ – تفسير ابن كثير .

٤ – تفسير القرطبي .

٥ – أحكام القرآن لابن العربي .

٦ – مجاز القرآن لأبي عبيدة .

٧ – تفسير أبي السعود .

٨ – زاد المسير لابن الجوزي .

٩ – حاشية الجمل على الجلالين .

١٠ – أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي .

١١ – روح المعاني للألوسي .

١٢ – تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي .

١٣ – ظلال القرآن سيد قطب .

محمد بن محمد الأنصاري

المدرس بمعهد الرياض العلمي